الفصل السادس

كانت أسودهم مناجذ[1]

بلغت صلاح الدِّين أنباء النصر الكبير في الأُقحوانة Cresson، في معسكره بتل عشترا على نبعٍ شرقيّ بحيرة الجليل. وكان قد عسكَرَ هناك في موقع متوسطٍ يستطيع منه بدء عملياتٍ عسكريةٍ باتجاه الكرك أَو الجليل. في معسكره ذاك تلقّى أخبار المعركة في رسالةٍ شعرية[2] من أكبر أبنائه، الأفضل، الذي كان وقتَها فتىً في السادسة عشرة من عمره، وكانت تلك أول معركةٍ يشهدُها عن كثب. شبّه الأفضلُ الفوزَ في الأُقحوانة باقتحام قلوب العذارى، الرائعات الجمال، العسيرات المنال، اللواتي لا يستطيع الفوزَ بهنّ غير أولئك الرجال، الذين يستطيعون دفع مهورهنّ الغالية. وقد فاز الأفضل بالفتاة الأولى «بعد كفاحٍ قصير». وهو يُبلغُ روائعَ هذا الفتح لوالده «سيد الغُزاة»، الذي سمح هو لنفسه أن يشرب الكأس بدلاً منه، بعد أن فاز بذلك بحدّ سيفه.

فتح الانتصار على تلك العصابة من المغامرين الأغبياء، عيني

---

(1) المناجذ، جمع قنفذ. وعنوان الفصل مأخوذٌ عن رسالةٍ لعماد الدين الأصفهاني في **الفتح القسّي** ص 19، في وصف المعركة؛ لكنه هناك يجمع قنفذ على قنافذ؛ وقارن بكتاب الروضتين 2/ 77: «وناشبهم النشاب فعادت أسودهم قنافذ».

(2) ما تمكنت من معرفة مصدر القصيدة، لذلك ترجمتُها على النحو الوارد (المترجم).

صلاح الدِّين على الإمكانية الكبرى التي انتظرها منذ زمنٍ طويل. وهكذا فقد رأى أن يتناسى مؤقتاً عقدتَه الدائمة والمتمثِّلة بالفارس الأسود في حصن الغُراب الممتنع عليه، وأن يلتفت إلىٰ تلك الفرصة الاستراتيجيّة التي لاحت له. اتجه صلاح الدِّين بقواته الرئيسية شمالاً لينضمَّ إلىٰ الفرسان السبعة آلاف بالأُقحوانة[1]. وهناك انهمرت عليه كتائب العرب والأكراد من مصر وحلب والموصل، بحيث ارتفع عدد المقاتلين إلىٰ خمسةٍ وعشرين ألفاً. وجمع السلطان أمراء عسكره في مجلس حربٍ كبير: ماذا عليهم أن يفعلوا الآن؟ وكيف يكون عليهم أن ينتهزوا الفرصة السانحة؟ اقترح بعض الأمراء الاستمرار في تكتيك التعرّض والإزعاج، لأنّ الإغارات المفاجئة في أماكن متعدّدة كفيلةٌ بشرذمة مدافعي العدوّ ونشرهم على خطوطٍ طويلةٍ ضعيفة القدرة على المقاومة، وشديدة الإرهاق. أما الاتجاه لمصادمة قلب مملكة العدو فإنه كفيلٌ بجمع قواته في مواجهةٍ واحدةٍ هي أفضلُ الإمكانيات بالنسبة لهم. على أنَّ أميراً من أمراء الجيش، أشار إلىٰ الخصومات المستمرّة بين الولاة الصغار في الإمبراطورية الإسلامية، واقترح قائلاً: «إنّ الناس في المشرق يلعنوننا، ويقولون تركوا قتال الكفّار، وأقبلوا يريدون قتال المسلمين؛ والرأي أن نفعل فعلاً نُعذر فيه، ونكفَّ الألسنة عنا». وتكلم صلاح الدِّين أخيراً فقال: «الرأي عندي أن نلقى بجمع المسلمين جمع الكفار، فإن الأمور لا تجري بحكم الإنسان، ولا نعلمُ قدْر الباقي من أعمارنا، ولا ينبغي أن نفرّق هذا الجمع إلاَّ بعد الجدِّ بالجهاد»[2]. وفي الأسابيع التي تلت أعاد صلاح الدين تنظيم عساكره في قلبٍ وميمنةٍ وميسرةٍ وطليعةٍ وساقة: «وعرف كلٌّ منهم موضعه وموقفه، وأمره بملازَمته».

وفي الوقت نفسه، كان ريموند، الكونت الشاعر بالذنب، يصحبُهُ باليان

---

(1) ويقال إنه التقى بهم بموضعٍ قريب يُسمّى رأس الماء (ابن الأثير: الكامل م11، ص 529، 531) (المترجم).

(2) ابن الأثير: الكامل، م11، ص 532 – 533.

أُوف إبلين، وأسقف صور قد وصل إلىٰ نابلس حيث أدَّى اعتذاراً علنياً في مساعيه لمصالحة ملك القدس. وبذلك التقى جناحا المملكة الصليبية من جديدٍ وإنْ بصعوبة. سارع كونت طرابلس المحترم، المستقر السلطة، والذي زعزعت مكانته أحداث الأُقحوانة، للارتماء راكعاً ومستغفراً أمام غي أُوف لوزينيان Guy of Lusignan، الملك الضعيف، وغير المحترم (لدى المسيحيين). وهكذا أدَّى الطرفان مشهداً من مشاهد المصالحة والصداقة، ومضوا جميعاً إلىٰ القدس؛ حيث ظهروا هناك في احتفالٍ كبير؛ أعلنوا فيه أمام الجموع وتحت الرايات المرفرِفة، تصميمهم على الدفاع عن المملكة المسيحية. ومن هناك رجع الكونت المعذور إلىٰ طبرية على وعدٍ أن يُعِدَّ فرسانَهُ، ويلاقي رجالات الملك في الربيع في صفّورية. لكن كان هناك شيءٌ في الأجواء، يكذّب مظاهر الثقة تلك. فلا الأعلام الملوَّنة الخفَّاقة، ولا إعلانات الثقة، ولا حماسيات ومباركات الأساقفة والبطاركة، كان بوسعها إخفاءَ وجوه الضعف السياسية والعسكرية، التي كانت تُعاني منها المملكة الصليبية. فقد ذكر شهود العيان (الذين حضروا احتفالات القدس)، وأرّخوا للمملكة فيما بعد، نُذُراً وإشاراتٍ في السماوات، كما ذكروا رؤىً وكوابيس، تُشعر كلُّها باقتراب نهاية الزمان: «كانت هناك أماراتٌ وعلاماتٌ تُنذر بالدمار الآتي، المجاعات، والزلازل، وكسوف الشمس، وخسوف القمر». وفي الواقع، فإنّ سنتي 1186، و1187م شهدا ستة كسوفاتٍ وخسوفين. وفي 26 آذار/ مارس سنة 1187م، وعندما كان صلاح الدِّين يجمع قوّاته على سفوح الجولان، كان خسوفُ القمر شبه الكامل يترك لندن في ظلام دامس. وفي تلك الفترة حدثت اضطراباتٌ فلكية، شملت في إحدى المرات الكواكب الخمسة السيّارة. كان المنجّمون شديدي القلق. وبعد ثلاثة أسابيع على حدوث كارثة الأُقحوانة اقترن كوكبا الشمس والقمر في برج الميزان بشكلٍ ذكّر بالاقتراب الذي تنبأ به المنجّمون: «تلك الرياح العاصفة التي تنبأ بها الفلكيون، وقالوا إنها ستنتُجُ عن اقتران الكواكب، هي إشارةٌ أُخرى. لقد كانت عاصفةً قويةً فعلاً، هزَّت أركان الأرض الأربعة، وأنذرت بأنّ

العالَمَ كلّه كان على مشارف اضطراباتٍ وحروب». وعندما كان الجنود المسيحيون يتجمعون في حصن صفورية، رأى صاحبُ الملك حُلُماً مزعجاً. رأى نسراً محلّقاً فوق العسكر الصليبي، يجمع بين براثنه سبعة سهامٍ وقوس، ويصيح: الويل لكِ يا أورشليم!.

وبسبب الرعب الذي نزل به، قلّب الحاجبُ الأناجيل وقرأ في المزمور السابع [المزمور السابع: 13 ـ 14]: «على من لا يتوب يصقُلُ سيفه، ويطأ قوسه ويهيِّئها، ويسترد إليه آلات الموت، ويصنع سهامه ملتهبة»: أوَلم تكن تلك الأقواسُ السبعةُ إشارةً إلىٰ الخطايا السبع، والعقاب الذي نزل بالجيش المسيحي؟ ألا يجوز أن يكونَ صلاح الدِّين هو الأداةُ التي يستعملُها الربّ، الذي أغضبته خطايا شعبه؟

وهكذا فإنه عندما كان صلاح الدِّين يحشُدُ جيشَهُ شرقيّ بحيرة الجليل؛ فإنّ المملكة الصليبية كانت في اضطرابٍ شديد. لقد كانت المرة الأولى في الحقيقة التي يتجه فيها الجيش المسيحي إلىٰ مواجهةٍ حاسمة. فمنذ أحقابٍ وأحقاب كانت القوى الصليبيةُ والإسلامية تتصادم، فيتقدم أحد الطرفين على الآخر في إحدى المعارك، ليتقدم الطرف الآخر في معركةٍ أخرى؛ لكن لم يحدث منذ زمنٍ طويلٍ تغيُّرٌ استراتيجيٌّ في المواقع، لأنَّ الحربَ كانت في الحقيقة سِجالاً. كان كلٌّ من الخصمين، يعرفُ وجوه قوة خصمه ووجوه ضعفه، كما كان كلٌّ منهما يعرفُ تكتيكاته وتوجهاته الاستراتيجية جيداً. صحيحٌ أنّ أجزاءَ من المملكة الصليبية التي تكوَّنت في أعقاب الحملة الصليبية الأولى سنة 1098م استُعيدت من جانب المسلمين؛ بيد أنّ الأجزاءَ الأساسية من المملكة كانت ما تزال قائمةً ومتماسكة بعد سبعة عقودٍ من الحرب المستمرة. كان الصراع قد آلَ إلىٰ انضباطٍ وتنظيم في مواجهة التفوّق العددي. على أنّ هذا الواقع جلب معه حقيقة أنّ صلاحَ الدِّين كان يملك هامشاً للخطأ أوسَع بكثيرٍ من الهامش الذي يملكه المسيحيون. وقد جرَّب صلاح الدِّين الانتصار في

بعض المعارك، كما جرَّب الهزيمة في معارك أخرى؛ وبخاصةٍ قبل عشر سنواتٍ عندما ارتكب خطأ شطر جيشه إلىٰ شطرين، وقاسى نتيجة ذلك هزيمةً منكرةً على يد فرسان الهيكل في وقعة الرملة. وأمام القوة البشرية الضخمة (التي لا تستنفدها الهزائم) سارع الصليبيّون (كما هو معروف) إلىٰ بناء قلاعهم الضخمة.

بعث الملك غي نُذُرَهُ إلىٰ سائر أنحاء المملكة، مستعجلاً الانضمامَ إلىٰ الجيش الصليبي بصفورية، لأنّ جيش الكفرة يتجمّع على الحدود. ووعد الملكُ كلَّ جنديٍ يسارع للقتال بعطاءٍ جيد. إذ كان الملك قد عمد إلىٰ فتح خزائن الاحتياطي الخاص، المرسَل من ملك إنكلترا هنري الثاني لمساعدة المملكة الصليبية، تكفيراً عن الاشتراك في قتل توماس بيكيت (كما اتفق مع البابا آنذاك). بيد أنّ ذلك لم يكن عاملَ الإغراء والتحميس الوحيد. فقد اتجه الملك غي إلىٰ خطوةٍ أخرى أكثر أهمية: لقد أمر بطريرك القدس أن يرسل إليه الصليب الحقيقي من الذخيرة المقدسة (بكنيسة القيامة). وكانت تلك الذخيرة الأعزّ على المسيحيين قد أُحضرت لساحات المعارك عشرين مرةً قبل ذلك في العقود الثمانية السابقة. فقبل أربع سنواتٍ فقط، أي سنة 1183م حُمل الصليب الأعظم في غارةٍ إلىٰ أعماق بلاد الشام، ونُسِبَت لذلك الحضور المقدَّس قدرةُ الصليبيين على الحيلولة دون انتصار صلاح الدِّين عليهم. أما الآن، فقد وُضع الصليب برعاية أسقفي اللد وعكا في قلب الجيش، باعتباره الدرع الأخير الواقي من الهزيمة. وبذلك صار الجنود الصليبيّون هم حملةُ صليب الرب وحَفَظتُه. وما كان عدد ذلك الجيش المحتشد قليلاً. فعلى الرغم من الخسارة بالأُقحوانة، تجمع في صفورية زُهاء الألف والمائتي فارس، هم في الحقيقة كلُّ نبلاء المملكة الصليبية، بالإضافة إلىٰ عشرين ألفاً من المُشاة. وكان ذلك أكبر جيشٍ احتشد في المملكة اللاتينية على الإطلاق.

تقع صفورية على مقربةٍ من الناصرة. وهي المكان الذي اعتاد فرسان

المملكة التجمّع فيه. وتقوم في صفورية قلعةٌ على تلٍ عالٍ لحماية المدينة ذات الأصل الروماني. وإلىٰ القرون الرومانية أيضاً تعود تلك الشبكة من مجاري المياه وخزاناتها والمعابر تحت الأرض؛ وكانت مشهورةً بحماماتها وينابيعها الغزيرة؛ التي جعلت منها خزان الماء للمملكة اللاتينية كلّها. فتحت القلعة تتدفق المياه في وادي **رمون** (راويةً البساتين على الضفاف): «وفي ذلك الزمان اجتاز يسوع في السبت بين الزروع فجاع تلاميذه فجعلوا يقلعون سنبلاً ويأكلون» [إنجيل متى 12: 1، ولوقا 6: 1]. أمّا والدا السيدة مريم يواكيم وحنّة فقد أتيا من صفورية ذاتها. وطالما بقي الجيش في هذا الموقع الحصين الغنيّ بالغذاء، والحافل بالمياه، فإنّه سيكون آمناً.

في تلك الأيام القلقة كانت الشائعات عن قوة العدو واسعة الانتشار. وغذتها أخبارٌ مفادها أنّ دُعاة الخليفة توزعوا في آسيا الصغرى محاولين إثارة حماس الشبان المسلمين. وفي الحقيقة، فإنّ جيش صلاح الدِّين لم يكن أكثر عدداً بكثير من الجيش المسيحي. إذ ربما كان مجموعه حوالي الثلاثين ألفاً، وإن يكن مختلف التكوين. فالشوام والعراقيون والمصريون شكّلوا معظم قوات صلاح الدِّين، ومن ضمن تلك القوات عناصر كردية كانت تحظى بالإعجاب الشديد باعتبار أفرادها من أفضل الجنود على الإطلاق؛ ومن بينهم كانت القيادات تأتي غالباً. بلغ عدد الفرسان في جيش صلاح الدِّين حوالي الإثني عشر ألفاً؛ ومعهم عددٌ مُماثلٌ من المُشاة لمساعدتهم. وكان سلاح الخيالة الخفيف هذا مكوَّناً من فرسانٍ محكمي التدريب على القتال من فوق ظهور الجياد، كما أنَّهم كانوا رُماةً ماهرين بالقوس أثناء ركوبهم؛ بالإضافة إلىٰ مهارتهم في استعمال الحراب المميتة التي صُنعت نصالُها من القصب. أما عدة الحصان، بما في ذلك سرجه؛ فقد كانت محشوَةً بنوعٍ من القطن الخفيف يُسمَّى الكَزاغند يتحرك فوقها الفارس بسهولة، على جيادٍ يمنية الأصل، صغيرة القامة دقيقة القوائم والبطون، سريعة الحركة والقفز. وكان الفرسان يتوزعون

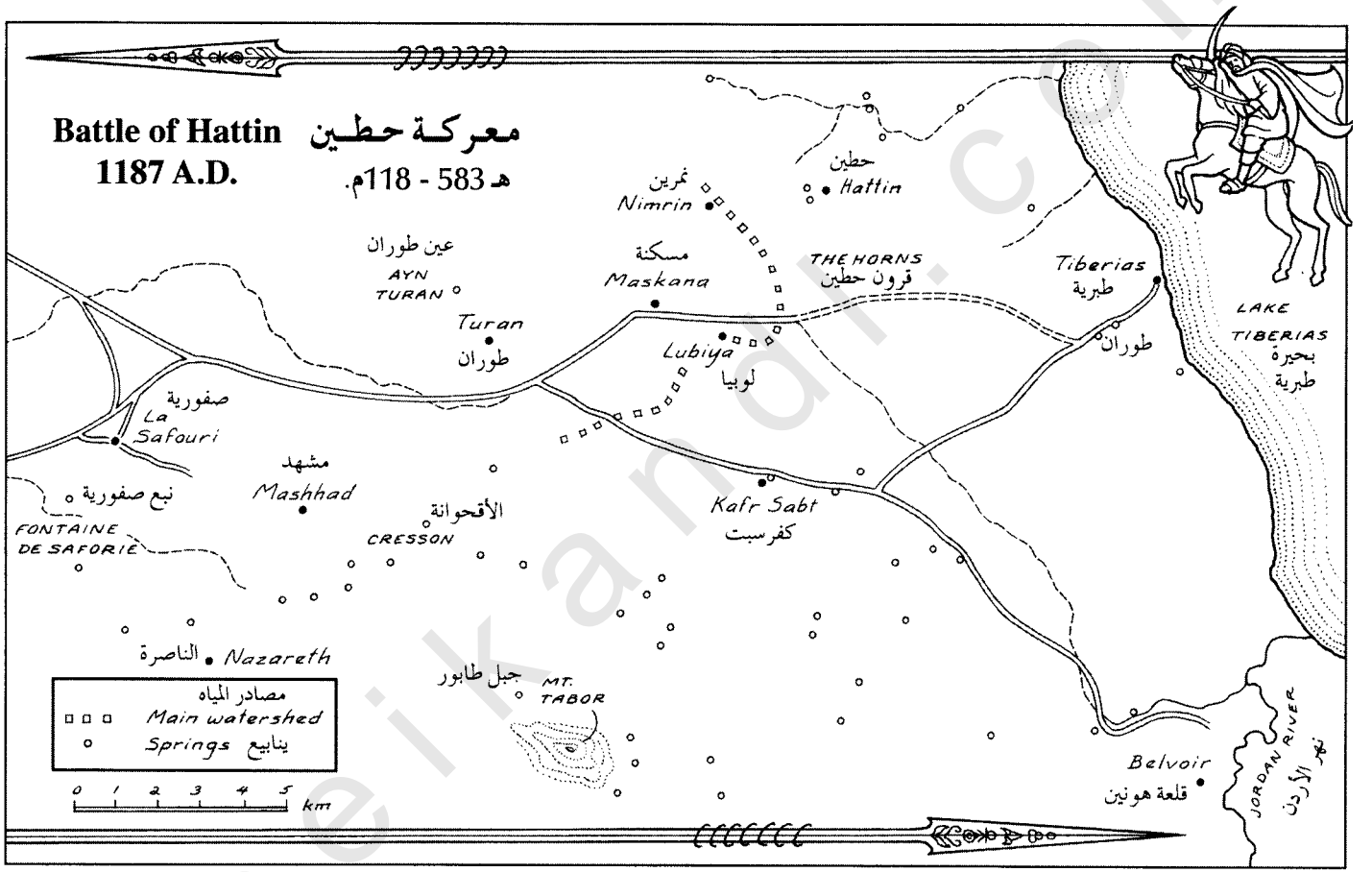
Battle of Hattin
1187 A.D.
معركة حطين
583 - 118هـ.
حطين
Hattin
نمرين
Nimrin
عين طوران
AYN
TURAN
مسكنة
Maskana
THE HORNS
قرون حطين
Tiberias
طبرية
Turan
طوران
Lubiya
لوبيا
طوران
LAKE
TIBERIAS
بحيرة
طبرية
صفورية
La
Safouri
مشهد
Mashhad
نبع صفورية
FONTAINE
DE SAFORIE
الأقحوانة
CRESSON
Kafr Sabt
كفرسبت
الناصرة
Nazareth
جبل طابور
MT.
TABOR
مصادر المياه
Main watershed
Springs ينابيع
0 1 2 3 4 5
km
Belvoir
قلعة هونين
JORDAN RIVER
نهر الأردن

في كتائب صغيرة، مدرَّبة على قتال الكرّ والفر. وهكذا فقد كان جيش المسلمين حسن التنظيم، حسن القيادة، ويتّسم بالانضباط، وله عدة ميزاتٍ على الجيش الصليبي. فقد كان سائر الجنود يتكلمون لغةً واحدةً هي العربية. ومع أنّ حجمه ما كان أضخم من حجم الجيش الصليبي، فقد أحاطت به شهرةٌ أُسطوريةٌ بعد أن بدأ بتحقيق الانتصارات. وقد وصلت الأخبار إلىٰ البابا بأنّ عدد جيش المسلمين بلغ الثمانين ألفاً. وقيل في روايةٍ أخرى إنّ السلطان يحشد مائةً وثمانين ألفاً، (وقد ارتفعت تقديرات أعداد جيش الكَفَرة بعد المعركة إلىٰ حدود الثمانمائة ألف)!

أمَّن الكونت ريموند إقطاعيتَه المعرَّضة في طبرية؛ فطرد المسلمين (من أعوان صلاح الدِّين)، وترك امرأته الشجاعة أيشيفا Eschiva في القلعة داخل أسوار المدينة مع تعليماتٍ بأن تفِرَّ عبر بحيرة طبرية إذا انتصر صلاح الدِّين على الحامية. ثم مضى الكونت على رأس قواته للانضمام إلىٰ الملك.

II

اللّه أكبر

في الأول من تموز/يوليو، وعلى وقع صرخات الحماس: النصر على عدوّ الله! عَبَرَ جيش المسلمين نهر الأردنّ جنوبَ بحيرة طبرية، أمام أنظار فرسان الهيكل الذين كانوا يراقبونهم من قلعة هونين؛ المشرفة من على هضاب الجولان على تلك الوهاد. وقد كان حجمُ الجيش ـ كما عبَّر عن ذلك صلاح الدِّين عقِبَ المعركة ـ من الضخامة بحيث إنّ السهلَ الشاسع ما كان لِيَسَعَهُ، كما أنّ «الغبار المُثار من تحت سنابك الخيل غطَّى عينَ الشمس». وتجاوز المسلمون طبرية في البداية، سائرين غرباً إلىٰ ناحية كفرسبت، على مبعدة خمسة أميالٍ من الناحية الشرقية للأُقحُوانة ورأس الماء. ومن موقعه ذاك

استطلع صلاح الدِّين برضىً سهلَ لوبيا على الجهة الشمالية من معسكره، وقال لضبّاطه إنه يأمُلُ أن يستدرجَ الفرنجةَ إلىٰ هذا السهل للمعركة الحاسمة. ومن أجل إزعاج الفرنجة وإثارتهم؛ فإنّ المسلمين أشعلوا النيران بالبساتين والحقول التي أنضجتها أشعة شمس الصيف. وعندما لم يُبْدِ العدوّ أيَّ ردة فعلٍ، عمدوا إلىٰ العبث في قمة هضبة طابور، المكان الذي ظهر فيه المسيح لتلامذته، وحيث سمعوا صوتَ السيّد من خلال الغمام. لكن، أياً يكن انزعاج المسيحيين لانتهاك المقدّسات؛ فإنهم ما أظهروا ذلك. وهكذا بدا لأول وهلةٍ أنهم لن يغامروا بمنازلة صلاح الدِّين.

في اليوم التالي، قام السلطان مع بعض التردد، بقسمة جيشه، وهو على وعيٍ تام بمخاطر ذلك. فقد قاد قوةً صغيرةً، لكنها من قوات النخبة في الجيش؛ بما في ذلك حرسه الخاص، الذين كان يسميهم على سبيل التحبّب جمرات الإسلام، باتجاه طبرية. وقد عمل أولئك الجند بسرعةٍ في تشعيث أسوار المدينة وتخريبها، وتوصلوا لهدم أحد الأبراج، ودخلوا المدينة من تلك الفتحة، واجتاحوها بسرعةٍ سقط بنتيجتها بعض القتلى: «وامتدت إليها الأيدي بالنهب والأسر والحريق والقتل، واحتمت القلعة وحدها»[1]. لقد أُخذت الثروات، وصودر الذهب والفضة بكمياتٍ كبيرة، وغُنمت الخيولُ والمواشي، وصودرت الزيوت والأقطان. وعاد صلاحُ الدين إلىٰ مصحَفه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [سورة آل عمران: 14]. أما الكونتيسة أيشيفا فقد هربت إلىٰ قلعة المدينة واعتصمت بها مع حرسِها. ذلك أنّها لم تستطيع الوصول إلىٰ بحيرة الجليل لقطع الطريق عليها بشكلٍ مفاجىء في بداية الهجوم. وأرسلت المرأة لزوجها رسالةَ استغاثةٍ من أجل أن يسارع لإنقاذها: «لقد حاصر العدوّ المدينة، وهم

(1) ابن شدّاد، ص 76، وابن الأثير 11/ 533، ومفرج الكروب 2/ 188. (المترجم).

يحاولون الآن تحطيم الأسوار من أجل الدخول إليها. أرسِلْ مدداً الآن، وإلاّ فسنقَعُ جميعاً في الأسر». لقد كان بوسعها البقاء خلف حيطان القلعة؛ لكنْ ليس لزمنٍ طويل. وسارع الرسول لامتطاء جواده خارجاً من المدينة المحترقة، واخترق صفوف المسلمين، دون أن يلحظه أحد.

عندما وصل نداء الاستغاثة إلىٰ الملك غي، جمع الرجل باروناته في مجلس حرب. وكان رأي شاتيون والرئيس الشرِس لفرسان الهيكل جيرار دو ريدفور منذ البداية الركوب فوراً لإنجاد السيدة المحاصَرة من محنتها. فقواعد الفروسية تتطلّب استجابةً مباشرة؛ لذلك قال دو ريدفور: «أطلب منكم وأدعوكم للذهاب لمساعدة طبرية»! كان الرجل يتحدَّث كأنما تُملي عليه ذلك قوةٌ عليا؛ فإن لم يفعل الملك شيئاً في بداية عهده هذا؛ فإنه سيبدو غبياً في نظر صلاح الدِّين، وسيحاول العدوّ الشرير الاستفادة من ضَعفه. والتفت الملك أخيراً إلىٰ النبيل الذي تمسُّه المسألة أكثر ما يكون، الكونت ريموند؛ الذي كانت زوجته في خطر، كما كانت إقطاعيتُه طُعمةً للنيران. وكانت المفاجأة، أنَّ الكونت نصح بالحَذَر والحيطة: «أنتم تعرفون أننا في عزّ الصيف، وهو أكثر فصول السنة حرارة. دعوا القوات المسيحية تنتظر العدوّ هنا: فقوة المملكة وحرارة الشمس كافيتان الآن لمصارعته. وعندما يرحل نكون مستعدين لملاحقته، والضرب في مؤخّرته. وأنا واثقٌ بمشيئة الربّ، أننا نستطيع بهذه الطريقة إلحاق خَسَائر كبرى به، بحيث تبقى مدينةُ القدس بسلام وأمان». وسارع شاتيون وجيرار دو ريدفور إلىٰ إعلان سُخْطهما على هذه النصيحة. قال شاتيون إنّ هذا الاقتراح «ممزوجٌ بشعر الذئب»، موحياً بأنّ رأي ريموند كان فاسداً ومبعثُهُ الخيانةُ والجبن.

وانفضّ الاجتماع على غير قرار، ومضى الملك لاستطلاع أحوال عسكره، الذي كانت أعدادُهُ تتزايد في حمأة الشعور باقتراب اندلاع الحرب المقدَّسة. وعندما رجع من الثكنات، عاد لجمع قادة الفرسان والنبلاء. في مجلس الملك أقبل ريموند ثانيةً على النصح بالتريُّث: «أيها السادة، أنتم

تعلمون أنَّ طبرية لي ولزوجتي، وأي ضررٍ يحصُلُ هناك فسينزل بي وليس بأي أحدٍ آخر. ولأنّ سيدة طبرية هي زوجتي؛ فإنّ آخِر شيءٍ أُريدُهُ نزول أيّ سوءٍ بها. لقد أرسلْتُ إمداداتٍ ومؤناً، ونصحتُها بأنه في حال العجز عن الصمود في وجه قوات صلاح الدِّين الضخمة؛ فإنّ عليها أن تنزل إلىٰ البحيرة لحين تمكُّننا من إنقاذها. وما اكتفى ريموند بالنصيحة بعد الهجوم؛ بل اقترح أيضاً الانسحاب إلىٰ القلعة الأكثر حصانةً في عكّا، كما اعتاد عليه الفرسان المسيحيون في الزمان الماضي: «أنا أعرف صلاح الدِّين، وهو أكثر كبرياءً وتصميماً من أن يغادر أراضي المملكة دون أن يصادمكم. وإذا كانت نتائج المعركة بقرب عكّا سيئةً بالنسبة لنا، لا سمح الله، فإننا نستطيع الاعتصام بحصن عكّا. أما إذا وهبنا الله النصر، واستطعْنا إرغام العدوّ على التراجع إلىٰ أرضه؛ فإننا سنكون قد أضعفناه ومزَّقنا صفوفه، بحيث لا يتمكن من مهاجمتنا من جديد». وعاد شاتيون للصراخ: هذا هو شعر الذئب! وتظاهر ريموند بعدم السماع، وتابع قائلاً[1]: «وإذا لم يحدُثْ ذلك كلُّه كما أقول، فسَأطلُبُ منكم أن تقطعوا رأسي»! بيد أنّ شاتيون لم يلتفت لشيءٍ من ذلك وقال بعصبية: «إنك تقف بوضوح إلىٰ جانب الأعداء، وعواطفك معهم، وإلاَّ لما تكلمْتَ بهذا الأُسلوب»[2]. وهذه المرة مال جميع البارونات إلىٰ جانب الصقر؛ وصاحوا

(1) في الكامل لابن الأثير 11/ 533: «إن طبرية لي ولزوجتي. وقد فعل صلاح الدّين بالمدينة ما فعل، وبقيت القلعة وفيها زوجتي. وقد رضيتُ أن يأخذ القلعة وزوجتي وما لي بها ويعود. فوالله لقد رأيتُ عساكر الإسلام قديماً وحديثاً ما رأيتُ مثل هذا العسكر الذي مع صلاح الدّين قوةً وكثرة. وإذا أخذ طبرية لا يمكنه المقام بها، فمتى فارقها وعاد عنها أخذناها وإن قام بها لا يقدر على المقام إلاّ بجميع عساكره، ولا يقدرون على الصبر طوال الزمان عن أوطانهم وأهليهم؛ فيضطرّ إلى تركها، ونفتكُّ من أُسر منا».

(2) النص في الكامل لابن الأثير 11/ 533: «قد أطلْتَ في التخويف من المسلمين، ولا شك أنك تريدهم وتميل إليهم وإلاّ ما كنتَ تقولُ هذا. وأما قولك إنهم كثيرون فإنّ النار لا يضرها كثرة الحطب. فقال القمص: أنا واحدٌ منكم إن تقدمتم تقدمتُ، وإن تأخرتم تأخرتُ وسترون ما يكون».

بصوتٍ واحد: «دعونا نمضِ لإنقاذ سيدات طبرية وصباياها»! وانضمَّ ابن أيشيفا من زوجها الأول، وربيب ريموند إلىٰ جانب الصقور، وطلب من الملك والدموع في عينيه المسارعة لإنقاذ والدته. وهكذا ظهرت قوة روح الفروسية وتقاليدها.

وعاد الملك للتردد والتذبذب كما كان شأنه دائماً. ومع الملك تردد البارونات وتأرجحوا أيضاً، مائلين إلىٰ جانب رئيس فرسان الهيكل تارةً، وإلىٰ جانب كونت طرابلس والإسبتارية تارةً أُخرى. وعندما تزايدت المجادلات يوم الثالث من تموز/ يوليو؛ عادت أكثريةُ البارونات للوقوف بجانب ريموند. فالصليبيّون لا يملكون القوة الكافية لدفع صلاح الدِّين عن طبرية. وقد رأى ريموند أنّ جيش صلاح الدِّين سيتفرّق بعد الاستيلاء على طبرية. وبذلك فقد كانت النقاشاتُ تتحوّل إلىٰ مواجهةٍ بين الشرف والحكمة. وفي المساء انتصرت الحكمة لبعض الوقت؛ فوَافق الفرسان على التلبُّث لبضعة أيام في موقعهم الحصين والمُريح والغني بالمياه، متوقعين تدفُّقَ قواتٍ أُخرى إليهم، ومنتظرين التطورات اللاحقة. لكنْ مع هبوط الليل، تسلّل رئيس فرسان الهيكل إلىٰ الغُرَف الداخلية للبلاط الملكي. فقد كان حقده على ريموند عظيماً؛ إذ كان هذا الأخير قد حال دون اقترانه بأميرةٍ ثريةٍ بعد أن كان قد وعد بذلك: «سيدي، لا تثق بنصيحة الكونت، لأنه خائن. فأنتَ تعرفُ أنه لا يحبُّك، ويريد لك الركون إلىٰ وضعٍ يجلبُ عليك العار. أنا أرى أن تتحرّك مباشرةً. دعنا نخرج ونهزم صلاح الدِّين». هذه المرة أوصل فارس الهيكل النقاش إلىٰ نقطةٍ حرِجة، تتعلَّق بالكرامة الشخصية، أَو الجبن. وفي التفاتةٍ مقصودة، أشار الهيكليُّ إلىٰ واقعة إزاحةِ الملك قبل ثلاث سنواتٍ من موقع الوصي على العرش، عندما سمح غي لقوات صلاح الدِّين بالعسكرة على مقربةٍ من عيون طوبانيا لمدة ثمانية أيام، دون مهاجمتهم؛ مناقضاً بذلك قواعد الفروسية، وكل أصول قوانين المملكة اللاتينية. لقد عوقب الملكُ آنذاك بسبب جبنه. وهو لا يستطيع تكرار

الخطأ نفسه الآن. وإذا خار الملك الآن، في الحملة الأولى بعد صيرورته ملكاً على القدس؛ فإنّ ريدفور لا يضمنُ له دعم فرسان الهيكل في المستقبل.

أظهرت حُجَجُ مقدَّم فرسان الهيكل وجاهةً وقوة. ولهذا فقد بدا لأول وهلةٍ أنّ الملكَ عاد للأخذ بآخر رأْيٍ يسمعُه. فقد كانت شجاعته، كما صارت رجولته، موضع شكٍ وتساؤل. ولذلك فقد غيَّر توجُّهه وأعلن أنه سيتحرك للخروج عند الفجر. وسارع إليه البارونات محتجين: «لقد استقرت المشورة على أن نبقى هنا لهذه الليلة على الأقلّ. فمن الذي زوَّدك بالنصيحة القائلة بالتحرّك الفوريّ للجيش؟» ونحَّى غي ضَعفَهُ وتردّده جانباً وصاح: «ليس من حق أحدٍ أن يسألني بمشورة من أفعل هذا أَو ذاك»، ثم أضاف عابثاً بعصبيةٍ في زينة ملابسه الملكية: «أريدكم أن تمتطوا جيادكم تاركين هذا الحصن باتجاه طبرية». وسارع ريموند محاولاً للمرة الأخيرة ثنيه عن عزمه: «طبرية مدينتي، وزوجتي هناك. ولا أحدَ منكم ناله من الضرر ـ باستثناء المسيحية ـ ما نالني ونال مدينتي. أرى أن لا نغادرَ هذا المكانَ الغنيّ بالماء والغذاء للسير مع هذه الآلاف المؤلَّفة من الرجال نحو الموت جوعاً وعطشاً وحرّاً. إنّ جنودنا لا يستطيعون البقاء نصف نهارٍ بدون ماء. صدِّقوني وابقَوا هنا في هذا الموقع المتوسط الآمِن والرغد». بيد أنّ كلماتِه لم تُسمع وسط الجوّ الاستعراضي المليء بمزايدات الرجولة والكفاح. لقد خضع الفرسان وأطاعوا، واتجهوا للاستعداد من أجل الرحيل. قال كاتب حولياتٍ فيما بعد: «بوصفهم رجالاً حقيقيين ومنظّمين، أطاعوا مليكهم، وأقبلوا على تنفيذ أوامره. ولو أنهم ما فعلوا ذلك ولو لهذه المرة فقط، لربما كان ذلك أفضل للمسيحية». وتقول الأسطورة التي نَمَت بعد تلك الأحداث إنّ خيول المسيحيين أبت تلك الليلة أن تشرب من عين صفورية.